قراءة في ثلاثة دواوين للياس لحود

المسافة بين القصيدة الحلم والواقع

********** بقلم محمد درويش

□ في خارطة الشعر العربي الحديث اكثر من قصيدة في اكثر من موقع ـ وفي مسيرة الشعر نفسه اكثر من موقف لاكثر من قضية .. ولكن تبقى قضية التوصيل خاضعة للايمان الكلي بحقيقة ما يصدر عن الذات الشاعرة لحقيقة الشعور ومن ثم التفاعل بين ما هو كائن وما سوف يكون .. وتبقى قضية الشعر هي الاساس الاول في التعامل الواعي والعاقل مع القصيدة العربية الحديثة .. من هذا الاطار يبدو مجرد الحديث عن ثلاثة دواوين شعرية لشاعر هام من الشعراء العرب اليوم ـ مغامرة في مسرح النقد ـ تتطلب اكثر من موجة موضوعية في بحر النقد الذي ـ تتلاطم امواجه ـ بلا سبب في زمن قل فيه ان تجد عملا ابداعيا كاملا متكاملا له جذوره ومسيرته الطويلة المبرمجة والمتطورة في آن معا .. من هنا فان مناقشة اعمال الشاعر الياس لحود الثلاثة نبغي منها محاولة القاء بعض الاضواء النقدية والاستطلاعية علنا نصل الى بعض ما يختفي خلف القصائد من حالة ثورية وانسانية وشمولية ابداعية لها ارتباط اساسي باساسية الفن وقدرته على تحويل المد الانساني الى الامام ..

١ ـ على دروب الخريف (مرحلة الحلم)

.. وفي بداية الحلم المتصاعد في البحث عن القصيدة ـ الفعل ـ تصاعدت القصيدة عند الشاعر الياس لحود منذ ديوانه الاول على دروب الخريف (١) لتكتب وصية الكتابة تارة بالدمع وتارة اخرى بالوجدان « وغنت للفلاحين وللنساء ولعطش المساء الموغل في الحزن ـ وغنت لفاتحة النشيد اكثر المرارات .. وخاطبت الاوجه الحزينة ـ وكان النشيد باردا في الدم وحارا في اللقاء .. وبين المطر والشباب والصراع ـ كان السأم وكانت شجرة الشاعر قليلة الاوراق فلملم ذاكرته بانخفاض وانفجر في الصمت كالعاصفة ـ وارتفع مع الجناح .. وحكى لنا عن تشرين والدموع التي لاحت له من اقاصي الجنوب ، وعن الايدي المملة التي تذكره بالشتاء الكئيب وهو يودع اهله .. وكان الشاعر يقفز بين الضجر والتلاشي الى التألم ورواسب الصيف الى الخريف ، الى آن يعلن صيحته الكبرى في الزمن الجنوبي :

« لم يبقى للصيف المبعثر
الا وجوه بائسات
وبضع اولاد حفاة
يجمعون ورق الصنوبر »

وتستمر رياح الخريف ، ويبتسم الشاعر لحود لفناء العصافير ، وتسقط غيمة ، ويفرح الشتاء ـ وبعد المطر تعالت صيحة الصقر الرهيب من على صخر عظيم .. ثم ولدت الاجيال كالظلال في الجبال ـ وتوالت الاشعار صاخبة ناعمة ، فابصر الشاعر « المغارة » وسمع الخراف ـ ورأى الثلج بقايا اقدام ، يسير على مقربة منها شبح الفلاح الفقير ..

وبعد الميلاد تكون الكلمات ـ وفي الطريق ينتفل الياس لحود الى الرومانطيقية فيغني عودة البجع والمرفأ ورحيل الصيادين ـ ثم ينتظر ويكتب للربيع اغنية . ويدخل في الاسلوب القصصي المميز بروح المثابرة والمغامرة الى حد كبير ، فيطالعنا بقصيدته اربعة مشاهد في غابة ـ ويطل حطاب ليحطب لشتاء بلا انتهاء .. ثم يرسم لحود رسوما لفجر وللارز وللرياح المحترقة ، وللصنم المحطم .. ويعرج شاعرنا على الموسيقى الريفية ليحكي عن الجوع الذي قطع ايديه السكون ـ ثم يقص علينا عن العينين اللتين تطلبان شيئا ـ ثم يعود الى الخريف .. وحين تولد السنابل الحية ويبرق المنجل في اقصى متاه في الجنوب بين امواج الحلى الصفراء في السهل الرحيب ـ يخاطبه الياس لحود :

« يتحدى قبضة الموت التي شدت على اعناقها
بعدما أزهى اصفرار الخير في اوراقها » .

وبين الصفاء واليقظة والريح والهشيم ـ وقصائد الاوراق والشاعر والحنين ، الى حيث تسكنين وآخر ايام حزيران ـ ووحشة ، وذكرى الصيف الاخير وايلول .. يضيع الشاعر بين اطياف رولا وحب الظلال وحزن القمر ـ ويصل لنشيد البحارة يتسلق لحود اغنية الرياح الطويلة ـ والالوان السوداء ـ وقصائد المطر وينهي ديوانه الاول بتلك الرحلة بين الدعوة الى الحياة والاخضرار.

□ وتتفتح مسيرة الياس لحود الشعرية بين الشوق للربيع والامل بالتحول الثوري لانساننا الذي يراقب الشمس يوميا ـ فالارض لم تعد الا الحبيبة التي تناجيها

الرياح والمعاول والامطار ـ والقضية في ديوان لحود الاول كانت معه بين السطور .. تتفاعل وتنفعل وتنهل في القصيدة ـ وهكذا كتب لحود بداية التعب الجنوبي منذ اطلالته على عالم الشعر العربي ..

ـ ٢ ـ والسد بنيناه (مرحلة الواقع)

مع المرحلة الثانية من شعر الياس لحود ، كانت المقدمات تصطدم دائما بجدران الواقع ثم تتخطه وكان التجاذب والاصطدام بين ما يطمح اليه الشاعر وبين ما هو كائن ، ولقد عرفنا لحود رافضا للمعايير والمقاييس القائمة ، وعرفناه راكبا على جواد الكلمات ومقتحما لاسوار القصيدة التي تختلط بالانفعال والمحاكاة لماضي الشعر العربي وحاضره ـ واليأس لحود غير منقطع عن التراث الحضاري للشعر العربي ـ بل هو تناول كل الماضي وعصره في نتاج نفسه، لذا جاءت قصائده في ديوانه الثاني والسد بنيناه (٢) لتحكي هذه المقدمات ولترفع الستار عن نتائج القصيدة في جسم القصيدة العربية الحديثة ـ خصوصا في مرحلة الستينات حيث كان الشعر العربي في ازمة كبيرة فماذا قال لحود في قصائده ؟؟

في قصيدة « لكم » كانت تعابير الياس لحود تلبس توب الصراع ـ بل تتحول في بعض الاحيان الى كتلة صراعية واحدة كاملة المبنى والمعنى معا ـ والا فما بال القارىء بهذا المقطع من قصيدته :

« اكتب ..
الى الذين يبصرون غابة من الطيور
على حدود قرية ثبات مرهقة ..
لانها على الحدود دائما محلقة ..
واكتب
لمن يهي ويتعب
لانه يهيب بالذين يهربون
ويشرب
من الدموع كأسه المريرة الخمور
واكتب
لحارس يبات واقفا على سرير نور
يرى به الصباح والشموس مشرقة ..
واسكب
لمن يريد خمرة معتقة
بلا ثمن .. لانني صغير
امام مجدك العظيم يا وطن .. »

وتمتد المسافة المزروعة بين المعاناة الصادقة عند الشاعر لحود لتوزع على قصائد تحمل عناوين تتفاوت في البنى الفوقية والتحتية للقصيدة ـ الا انها تتسم بصفة واحدة هي التنزيف باتجاه جوهر الشعر الفعال في الحركة ـ فمن قصيدة « الحاصدون » الى النسر ونشيد الفرح مرورا بالمقاتلين ـ والاغنية ـ الى المحطة ـ واغنية المناجم « والبناؤون » والسد والبلاد .. الى ان يتردد لحود صوته وصداه ونغمه التاريخي بصوت الشاعر المتطور ابدا :

« لو يصبح قلبي قنبلة
فوق الاعداء افجرها
لو اصبح نارا حامية
بين الاسوار تدمرها » .

ويحاكي الشاعر لحود التراث العربي عبر قصيدته « هوادج الشريف الرضي » ويصرخ « أينهم احفادي ؟ أحفاد امتنا البريئة يحكون لي قصصا جريئة عن شرقهم عن شرقنا » وفي قصيدته فيزوف والفصول الاربعة ـ ينتقل الشاعر بين الفصول العربية فحروب ١٩٤٨ و١٩٥٦ و ١٩٦٧ حاضرة في جرحه ـ وحاضرة في احاسيسه ـ لذا يقول :

« فجري البركان يا أرضي
ـ ترى ؟
طال انتظاري
انها ارضي أنا ..
والنار ناري » .

وتنطلق القصائد في خط تصاعدي يختصر المسافة بين الحلم والواقع فمن قصائد « ولادة المتنبي » و« السائح والبركان » الى « المسافرين في الربيع » ومن دفء الطفولة الى عودة تموز وامنيات الشاعر الى احلام العبيد ورقصة السيوف ـ تكون المفردات عند لحود مادة التلاحم والتوحد مع المشاكل الانسانية للعالم المتفسيح .. ومن اهم قصائد الديوان التي تشكل كلا متكاملا قصيدة « والسد بنيناه » التي جاءت لتكتب عن عزيمة الانسان العربي وقدرته على تحويل الهزيمة الى نصر ، ونرى فيها الشاعر لحود يستحضر كل امكانيات الانسان العربي التاريخية في محاولة منه لرصد المستقبل والكتابة له بوحي من التفاؤل بقدرات هذا الانسان الابداعية والفكرية والحضارية .. ولقد كان الشاعر لحود ناجحا فيما اختطه لنفسه من خط تاريخي يتناسب مع عمق ووعي المنهج ..

فكاهيات بلباس الميدان («مرحلة «الحلم الثاني»)

ان مجال الشعر هو الشعور ، سواء أثار الشاعر هذا الشعور في تجربة ذاتية محضة كشف فيها عن جانب من جوانب النفس ، او نفذ من خلال تجربته الذاتية الى مسائل الكون ، او مشكلة من مشكلات المجتمع ، تتراءى من ثنايا شعوره واحساسه (٣) ـ وهكذا فان الشاعر الياس لحود كان وما زال منذ ديوانه الاول وحتى ديوانه الثالث فكاهيات بلباس الميدان (٤) يأخذ من الناس ويعطيها ـ ويتعلم من الجماهير ويعلمها حسب رأي الشهيد

الاديب غسان كنفاني في روايته « أم سعد » ـ ولقد تابع لحود مسيرته وكان يتنقل بين آلهم الجنوبي والهم الانساني متسلحا بالقصيدة وبها يواجه العالم . . ومنذ اول قصيدة في ديوانه الثالث يبدو العمق المعاناتي في حروف الكلمات ويبدو التهيؤ الفعلي لكتابة القصيدة ومن ثم استيعاب متغيراتها الايديولوجية وقدرتها على التحول والتحويل معا.. فالمقدرة على العطاء هي بالتالي مقدرة على الاخذ والتواصل مع قضايا الشعب.. ولعل أهم النواحي التي يتناولها لحود في قصائده هي تلك القدرة على هضم الماضي واستطلاع الحاضر والتفاؤل في المستقبل ، ففي قصيدته ـ ثلاثة مواسم من كتاب صلاح الدين ـ يبدو جو القصيدة منوعا ومشرقا :

« اذا كان دمي من نسل دمائك
مُر سيافك ان يطلق سيفي
أو دعني اصهر من قضباني سيفا
حيث نعود الى بحر الظلمات » .

اما الغربة التي يعاني من نارها انسان هذا العصر الضائع بين الموت والموت فمن يخلصه من برج الموت وشفق الموت وموت الموت وسكين الموت ؟

« وانحنى الصوت في دمي
خطوتان واهبط في وحدتي
مثلما يهبط الضوء عن صهوات المفازة
خطوتان وتسقط هدب المسافات ،
حول وجهي الكآبة والاغنيات السميكة ،
وجهي شريد على الريح مدّ الذراعين
اغلق سفر التكون القى الحقائب وارتاح ..
وجهي تحاصره الازمنة » .

والياس لحود كعادته ذلك الطائر من غصن الى غصن ـ وذلك الحامل من اوجاع اللغة ما تكفيه لمسافة الطريق ـ وحلم الوصول ـ والشاعر لحود هو نفسه الذي يصل للقصيدة بدون تكلف وادعاء ـ وهو الذي يقاتل القواميس الاربعة في قصيدته ثم يتلو ملحقا رومانسيا لتحولات السندباد وعندما يلوح له الجنوب يغنيه من جديد ـ فهو اغنية الصباح والمساء وفيه ينكسر الفأس على جذوع الزيتونة ، فتنبت في الزيتونة ازمنة واظافر .. ثم يركض الشاعر في الحلم الى الصباح، فتنساب في ذاكرته خنادق الهبوب ـ « وينام في الحذاء كما ينام الناس في الجنوب » ..

ويعلن الشاعر موقفه ـ ويعلن الحرب ويشتعل بالقصائد :

« يطردني الوطن من الغرفة
ممنوع ان اتجول ..
ممنوع ان اقرأ في الصحف سوى اعمدة بيضاء »

ويكتب الشاعر ملصقات على جدران الذاكرة وتتدحرج ذاكرته من رصيف الى رصيف ومن موقع الى موقع ـ ثم يراقب نفسه في اعين الناس التي يحبها ويكتب من اجلها .. ويخاطب الشاعر الحرب في نزيف الذاكرة ويحكي عن المصادرة في زمن الحمامة المطوقة ـ وعن مذكرات ابي ذر الغفاري التي لم تنشر ـ ويعطي تعليماته عن الزمن الآتي .. ويشرح لعبة الساحر ـ ثم يكتب قصيدة وداع على ايقاع اللحن الجنائزي ـ ويكتب وصية الارتباط بالارض والشجر والناس :

« أنا بانتظارك قرب المعابر
أشد على جذع سروتنا انحني
كلما عبر الغيم ظهرا
ومالت رياح البنادق نحو الجنوب »

وعندما تتقاطع المأساة والملهاة وعندما تدخل الكوميديا المريرة في حضرة القصيدة ـ والوجه ينكسر في لغة الماء ـ يبدو الياس لحود واضحا مثل شمس الفقراء فقصائده تارة يمازجها الضحك ويلاعبها نسيم الصدق في البكاء ومن اجل من ؟ من اجل القصيدة نفسها ..

وتتابع الصور والقصائد من « الممنوعات » الى مذكرات عائد الى البلاد الحارة ، الى المأساة على لسان الراوي ، ويغني الشاعر « اغنية الفيثارة النحاسية » وكلمات قبل الموت ـ ويعلن الحياة على مشارف القصائد الاخيرة في ديوانه ـ وينفجر دفعة واحدة في قصيدته « ماسح الاحذية الجنوبي » حيث يلخص العذاب ويجمع العرق ، ويعد حبات التراب بمواسم الحصاد ، وعندما تكتمل دورة الجرح عند الياس لحود ـ وتتقاطع خيوط الحزن ـ يتذكر بابلو نيرودا على قمم ماكتشوبكتشو ـ فيبكيه كمن يلاحق قصيدة يرجو معها لقاء ، او كطفل يفرح من بعد بكاء ـ فالياس لحود شفاف الى حد يصعب معه أن تراه بوضوح ـ انه يستعين بالدمع ليصل الى البسمة ـ وهو الحاضر في معاناته في دواوينه الثلاثة هو نفسه الذي يكتب لمانويل ماتشادو ويرقص على صرخات الفلامنكو .. وهو نفسه الذي يقول لكل الذين من اجلهم تصنع الاناشيد :

« سال اللحن في معاجن الصفيح
سال الريح عربدت حوافر الرؤى
انا صديق الشمس » .

ان الياس لحود يملك لغة خاصة واحساسا خاصا وهو بالتالي يملك موقعه كشاعر مهم في الشعر العربي الحديث ـ وذلك لقدرته على محاكاة القارىء ثم اخذه الى عالم كله التصاق بالانسان والثورة .

هوامش :

١ ـ على دروب الخريف ـ شعر ـ دار الروائع ١٩٦٢
٢ ـ والسد بنيناه ـ شعر ـ دار الكتاب اللبناني ١٩٦٧
٣ ـ النقد الادبي الحديث ـ الدكتور محمد هلال ـ دار العودة ١٩٧٣
٤ ـ فكاهيات بلباس الميدان ـ شعر ـ دار الآداب ـ ١٩٧٤